أطفال الماء

The Water-Babies

٦ – مع الملكتين

وَفِي صَبَاحِ يَوْمِ الْأَحَدِ ، جَاءَتْ مَلِكَةُ الثَّوَابِ ، وَكَانَتْ غَايَةً فِي الْجَمَالِ وَالْوَقَارِ ، فَمَا إِنْ رَآهَا الْأَطْفَالُ ، حَتَّى أَهْرَعُوا إِلَيْهَا وَأَمْسَكُوا بِهَا ، وَبِثَوْبِهَا ، وَجَعَلُوا يَتَمَلَّقُونَ بِهَا إِلَى أَنْ جَلَسَتْ عَلَى صَخْرٍ ، وَالْجَمِيعُ مِنْ حَوْلِهَا ، وَأَخَذُوا جَمِيعاً يُغَرِّدُونَ فِي مِثْلِ هَرِيرِ الْقِطَطِ . وَكَانَ تُوم يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ هٰذَا مَأْخُوذاً دَهِشاً ، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ الْمَلِكَةُ ، وَقَالَتْ : « وَمَنْ أَنْتَ يَاعَزِيزِي الصَّغِيرَ ؟ » فَصَاحَ الْأَطْفَالُ قَائِلِينَ : «هٰذَا هُوَ الطِّفْلُ الْجَدِيدُ. وَهُوَ يَتِيمٌ لَمْ يَرَ لَهُ أُمّاً » فَأَجَابَتْهُمُ الْمَلِكَةُ قَائِلَةً : « سَأَكُونُ لَهُ أُمّاً ، وَسَأُحِلُّهُ عِنْدِي أَحْسَنَ مُقَامٍ . اذْهَبُوا الْآنَ جَمِيعاً ، وَاتْرُكُونِي مَعَهُ وَحْدِي » ثُمَّ جَعَلَتْ تُلْقِي بِهِمْ فِي الْيَمِّ ، ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، مُدَاعِبَةً إِيَّاهُمْ ، وَهُمْ يَصْرُخُونَ ، وَيُقَهْقِهُونَ فَرِحِينَ . ثُمَّ أَخَذَتْ تُوم بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا ، وَاحْتَضَنَتْهُ بِرِفْقٍ وَحَنَانٍ ، وَأَخَذَتْ تُنْشِدُ لَهُ ، فِي صَوْتٍ عَذْبٍ رَقِيقٍ ، أَنَاشِيدَ الطُّفُولَةِ الْمُمْتِعَةَ ،

وجلست ملكة الثواب على صخرة والجميع من حولها

بينما كانَ هُوَ يَنظُرُ فى عَيْنَيْهَا الْجَمِيلَتَيْنِ ، وَبَطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهَا ، حَتى اسْتَغْرَقَ فى نَوْمٍ هَادِئٍ ، وَأَحْلَامٍ لَذِيذَةٍ .

وَلَمَّا اسْتَيْقَظَ تُوم ، تَأَهَّبَتِ الْمَلِكَةُ لِلرَّحِيلِ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ ، وَقَالَتْ : « سَأَتْرُكُكَ الآنَ يا عَزِيزِى ، فَعِدْنِى بِأَن تَكُونَ وَلَداً طَيِّباً ، وَأَلاَّ تُعَاكِسَ حَيَوَانَاتِ الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَى . »

تُوم : « أَعِدُكِ بِذَلِكَ ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَضُمِّينِى إِلَى صَدْرِكِ ، وَتُدَلِّلِينِى ، فى كُلِّ مَرَّةٍ تَجِيئِينَ فِيهَا إِلَى هُنَا »

الملكة : « سَأَفْعَلُ ذَلِكَ بِكُلِّ سُرُورٍ »

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ ، امْتَنَعَ تُومُ امْتِنَاعاً تَاماً عَنْ مُعَاكَسَةِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَحَاوَلَ جُهْدَهُ أَنْ يَكُونَ طَيِّباً مُؤَدَّباً ، فَكَانَتْ مَلِكَةُ الْعِقَابِ تَحْضُرُ فى يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَتُعْطِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَلْوَى اللَّذِيذَةِ ، مِثْلَ مَا تُعْطِى الآخَرِينَ . وَتَحْضُرُ مَلِكَةُ النَّوَابِ يَوْمَ الأَحَدِ ، فَتَغْمُرُهُ بِحَنَانِهَا ، وَتَضُمُّهُ إِلَى صَدْرِهَا ، وَتُدَلِّلُهُ . وَهَكَذَا قَضَى أَيَّاماً كُلُّهَا هَنَاءٌ وَسَعَادَةٌ غَيْرَ أَنَّهُ ، فى ذَاتِ يَوْمٍ ، اشْتَاقَ إِلَى الْحَلْوَى ، وَلَمْ يُطِقِ الصَّبْرَ حَتَّى تَحْضُرَ مَلِكَةُ الْعِقَابِ ، وَتُعْطِيَهُ مَا يُرِيدُ مِنْهَا ، وَكَانَ يَعْرِفُ الْمَكَانَ الَّذِى تَضَعُ فِيهِ الْحَلْوَى ، فَتَسَلَّلَ إِلَيْهِ فى ظَلاَمِ اللَّيْلِ ، وَسَرَقَ مِنَ الْحَلْوَى بِقَدْرِ مَا أَرَادَ .

وَجَاءَتْ مَلِكَةُ الْعِقَابِ ، فى الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ ، وَكَانَ تُومُ يَرْتَجِفُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَلَكِنَّهَا أَعْطَتْهُ نَصِيبَهُ مِنَ الْحَلْوَى كَالْمُعْتَادِ ، فَاطْمَأَنَّ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهَا لَمْ تَتَبَيَّنْ فَعْلَتَهُ . ثُمَّ جَاءَتْ مَلِكَةُ الثَّوَابِ ، فى يَوْمِ الأَحَدِ التَّالِى ، وَأَخَذَتْ تَضُمُّ الأَطْفَالَ وَتُدَلِّلُهُمْ كَعَادَتِهَا ، فَلَمَّا جَاءَ دَوْرُهُ ، حَمَلَتْهُ ،

فتسلل وسرق الحلوى

وَلَمْ تَحْتَضِنْهُ ، بَلْ أَلْقَتْهُ إِلَى الأَرْضِ ، وَقَالَتْ : « كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَحْتَضِنَكَ يا عَزِيزِى ، كَمَا عَوَّدْتُكَ ، وَلَكِنِّى لاَ أَسْتَطِيعُ الْيَوْمَ ، فَجِسْمُكَ شَائِكٌ لاَ أَحْتَمِلُهُ » وَتَأَمَّلَ تُومُ نَفْسَهُ ، فَوَجَدَ جِلْدَهُ مُغَطًّى كُلُّهُ بِشَوْكٍ حَادٍّ ، فَأُطْرِقَ حَزِيناً ، ثُمَّ سَارَ بَعِيداً ، وَتَوَارَى عَنْ إِخْوَانِهِ خَجَلاً ،

وَقَضَى الْأَيَّامَ يَبْكِى بُكَاءً مُرًّا ، حَتَّى جَاءَتْ مَلِكَةُ الْعِقَابِ ، فَتَشَجَّعَ وَقَابَلَهَا مَعَ أَقْرَانِهِ ، وَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ نَصِيبَهُ مِنَ الْحَلْوَى كَعَادَتِهَا فَصَرَخَ قَائِلاً : « لَا أُرِيدُ شَيْئًا مِنَ الْحَلْوَى ، بَلْ لَا أَحْتَمِلُ رُؤْيَتَهَا » ثُمَّ اعْتَرَفَ لَهَا بِفَعْلَتِهِ ، وَكَانَ يَتَوَقَّعُ أَنَّهَا سَتُعَاقِبُهُ عِقَابًا صَارِمًا ، وَلَكِنَّهَا حَمَلَتْهُ بِرِفْقٍ ، وَقَبَّلَتْهُ قَائِلَةً : « لَيْسَ فِى إِمْكَانِى إِزَالَةُ الشَّوْكِ مِنْ جَسَدِكَ ، فَعَلَيْكَ أَنْتَ بِالْعَمَلِ وَحْدَكَ عَلَى إِزَالَتِهِ » . وَأَطْرَقَتْ قَلِيلاً ثُمَّ قَالَتْ : « سَأُحْضِرُ لَكَ مُعَلِّمَةً تَهْدِيكَ سَوَاءَ السَّبِيلِ »

وَظَنَّ تُوم أَنَّ الْمُعَلِّمَةَ سَتَكُونُ سَيِّدَةً جَافَّةً قَاسِيَةً ، تَأْخُذُهُ بِالشِّدَّةِ وَلَكِنَّ الْمَلِكَةَ عَادَتْ بَعْدَ قَلِيلٍ ، وَمَعَهَا فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ ، لَمْ يَرَ تُومُ أَجْمَلَ مِنْهَا ، فَتَأَمَّلَهَا ، وَنَظَرَ إِلَى شَعْرِهَا الذَّهَبِىِّ الطَّوِيلِ ، وَثَوْبِهَا الْفِضِّىِّ الْبَدِيعِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَيْهَا فِى خُشُوعٍ ، وَالدُّمُوعُ تَتَرَقْرَقُ فِى عَيْنَيْهِ ، قَائِلاً : « عَلِّمِينِى وَاهْدِينِى سَبِيلَ الرُّشْدِ » .

وَارْتَبَكَتِ الْفَتَاةُ هُنَيْهَةً ، وَلَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا اسْتَعَادَتْ ثَبَاتَهَا . وَأَخَذَتْ تُلْقِى عَلَيْهِ دَرْسًا فِى الْأَخْلَاقِ ، وَاسْتَمَرَّتْ تُعَلِّمُهُ كُلَّ يَوْمٍ ، مَا عَدَا أَيَّامَ الْأَحَدِ ، الَّتِى كَانَتْ تَحْضُرُ فِيهَا مَلِكَةُ الثَّوَابِ ، حَتَّى زَالَتِ الْأَشْوَاكُ عَنْ جَسَدِهِ ، وَعَادَ جِلْدُهُ نَظِيفًا نَاعِمًا كَمَا كَانَ .

وقال توم : عَلِّمِينِى واهْدِينِى سَبِيلَ الرُّشْدِ

وَفِى ذَاتِ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ تُوم يَتَلَقَّى دَرْسَهُ ، تَأَمَّلَتْهُ مُعَلِّمَتُهُ طَوِيلاً ، ثُمَّ قَالَتْ : « يَا لَلْغَرَابَةِ ! أَكَادُ أَجْزِمُ بِأَنَّكَ كُنْتَ الْمُدَاخِنَ الصَّغِيرَ ، الَّذِى دَخَلَ حُجْرَتِى فِى أَثْنَاءِ نَوْمِى »

فَدُهِشَ تُوم ، وَصَرَخَ قَائِلاً : « يَا لَلهِ ! كَيْفَ لَمْ أَعْرِفْكِ ؟ إِنَّكَ وَلَا شَكَّ الْحَسْنَاءُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي كَانَتْ رَاقِدَةً فِي الْحُجْرَةِ الْبَيْضَاءِ . » ثُمَّ جَعَلَ يَسْرُدُ لَهَا كُلَّ مَا حَدَثَ لَهُ ، وَأَخَذَتْ هِيَ أَيْضاً تَقُصُّ عَلَيْهِ حَوَادِثَهَا . وَاسْتَمَرَّتْ تِلْكَ الدُّرُوسُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةً ، حَتَّى صَارَ تُوم مِثَالَ الطِّيبَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَتَمَكَّنَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَلِّمَتِهِ أَوَاصِرُ الصَّدَاقَةِ وَالْمَحَبَّةِ ، وَأَرَادَ أَلَّا تُفَارِقَهُ حَتَّى فِي أَيَّامِ الْأَحَدِ ، فَسَأَلَهَا يَوْمًا : « لِمَاذَا لَا تَبْقَيْنَ مَعِي فِي يَوْمِ الْأَحَدِ يَا أَبْلَى ؟ » أَبْلَى : « إِنِّي أَذْهَبُ إِلَى مَكَانٍ جَمِيلٍ جِداً ، لَيْسَ لِي أَنْ أَبُوحَ لَكَ بِهِ . »

تُوم : « أَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَأْخُذِينِي مَعَكِ ؟ »

أَبْلَى : « سَلْ إِحْدَى الْمَلَكَتَيْنِ »

وَذَهَبَ تُومُ إِلَى مَلِكَةِ الْعِقَابِ ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِالذَّهَابِ مَعَ أَبْلَى ، فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ، إِلَى حَيْثُ تَذْهَبُ ، فَقَالَتْ لَهُ : « لَا يَذْهَبُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الْجَمِيلِ ، إِلَّا كُلُّ مَنْ يُضَحِّي بِرَاحَتِهِ فِي سَبِيلِ غَيْرِهِ ، وَيُسَاعِدُ شَخْصاً يَكْرَهُهُ . »

تُوم : « وَهَلْ فَعَلَتْ أَبْلَى مِثْلَ ذَلِكَ ؟ »

الْمَلِكَةُ : « اسْأَلْهَا »

وَكَانَتْ أَبْلَى حَاضِرَةً ، فَأَطْرَقَتْ خَجَلاً ، وَقَالَتْ : « لَا أَكْتُمُكَ الْحَقِيقَةَ يَا تُوم . فَقَدْ ضَحَّيْتُ بِرَاحَتِي فِي سَبِيلِ تَرْبِيَتِكَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَكْرَهُكَ »

تُوم : « سَأَذْهَبُ إِذَنْ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ وَأُسَاعِدُ شَخْصاً أَكْرَهُهُ ، بِشَرْطِ أَنْ تَجِيئِي مَعِي . »

أَبْلَى : « لَا . فَالْمَلِكَةُ تُحَتِّمُ عَلَى كُلِّ امْرِئٍ الْقِيَامَ بِتِلْكَ الْخِدْمَةِ وَحْدَهُ »

تُوم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا تُرِيدُهُ الْمَلِكَةُ . إِنَّهَا تَنْتَظِرُ مِنِّي أَنْ أَبْحَثَ عَنْ جِرِيمِسَ ، وَأَنْ أُسَاعِدَهُ فَإِنَّهُ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي أَكْرَهُهُ أَشَدَّ الْكُرْهِ ، بِسَبَبِ قَسْوَتِهِ ، وَسُوءِ مُعَامَلَتِهِ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَبْلَى : « هُوَ ذَاكَ ؛ فَاذْهَبْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ »

وَعِنْدَ ذَلِكَ اخْتَفَى كُلٌّ مِنْ أَبْلَى وَتُوم عَنِ الْآخَرِ فَجْأَةً ، وَأَخَذَ تُوم يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ : « أَبْلَى ! أَبْلَى ! » وَهِيَ تُنَادِيهِ : « تُوم ! تُوم ! » ثُمَّ خَفَتَ الصَّوْتَانِ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى تَلَاشَيَا .